الحزينة في مدينة « بيزو » ؟ ما عليّ الا ان اعيش مستقلاً . وهذا أكبر النعم ونهاية الارب . سوف لا أكون في حاجة الى ذرع الارض رواحاً وجيئة على ابواب اهل البلاط والمحاكم . سوف لا احسد احداً ، وسوف لا يحسدني احد . وكل هذا سهل هين . سيكون لي اصدقاء ، ولسوف احافظ على صداقتهم ، بأن لا اجعل سبباً للاختلاف معهم على شيء . سوف لا اوجه انتقاداً الى شيء يفعلونه او كلام يقولونه . وكذلك هم سوف يعاملوني . اية صعوبة في ان يلزم الانسان هذه الخطة ، وان ينهج هذا النهج » ؟

ولم يكد « مونون » يرسم هذه الخريطة الجميلة في مخيلته ، حتى أطل من النافذة فرأى امرأتين تمشيان تحت أشجار الشارع بمقربة من بيته . وكانت احداهما عجوزاً تسير الهوينا بغير اكتراث ، أما الاخرى فكانت شابة في عنفوانها ، وعلى مظهرها مايم على كثير من الاقبال . فكانت ترسل التنهدات . وتجود بالدمع الهتون ، فكانت في حالها تلك ، في تنهدها ودموعها ، أكثر جمالاً منها في سكونها وهدوئها . غير ان الفيلسوف مُسَّ سيئاً ، لا بالمرأة ، فانهُ كان قد عاهد نفسه على ان لا يكون فريسة لمثل هذه الخيالات ، ولكن بحالة القنوط والهم التي بدت عليها . فانحدر من السلم وتقدم الى « البنوية » الجميلة ، على أمل ان يهدىء روعها بالحكمة ويكبح جماح انفعالها بالفلسفة . فقصت عليه ، بكل ما تتخيل من سذاجة وطيبة قلب ، ما أصابها من المصائب على يد عمٍّ تخيلته تخيلاً ، وكيف حرمها من ثروة طائلة ما حلمت بها يوماً ، وروت لهُ ما كان من قسوته وما لقيت من جبروته وهماً وكذباً ، وما كان لها من عم ، وما كان لها من ثروة ، وانما كان لها خيال خصب يصور الحوادث ، فيرويها لسان كان تحته هاروت ينفث فيه السحر الحلال

قالت « أتخيل أنك رجلاً أصاب من الحكمة وأفاد من الفلسفة . فلو أنك تفضلت وقدمت الى منزلي ، أذن تستطيع أن تنقذني من الورطة التي أجد نفسي فيها وتخلصني من المأزق الذي ترديت فيه »

فلم يتردد مونون في أن يقبلها ، ليبحث أمرها من وجهة فلسفية صرفة ، وان ينصح لها بأقوم سبيل يمكن ان تخطه الفلسفة

وهنالك في منزلها اقتادتهُ تلك الفاتنة الى حجرة ينبعث منها الطيب ويشيع في

جنباتها المطر ، وطلبت اليه في أدب واحتشام ان يجلس بجانبها على اريكة منتبذة اياه بوجهها ، كما لو يكون قد تأهبا لمعركة سلاحها الكلام والنقاش . فهي في شوق لان تقص قصتها ، وهو في شوق لان يسمع منها تلك القصة . ومضت السيدة تتكلم غاضة من بصرها ، مشيحة بوجهها نحو الارض ، مرسلة بين آونة وأخرى بالدمعة في إثر الدمعة ، زافرة بالتنهدة في إثر التنهدة ، وكانت ترفع عينيها الى من تكلم حيناً بعد حين ، فلا تفتأن الأعلى عيني « ممنون » الفيلسوف مركوزتين في عينيها . وكان حديثها حديث الصديقين ملأ كل منهما الإشفاق والحب لصاحبه ، اما هذه الصداقة وذلك الحب فآخذا يزيدان شيئاً بعد شيء ، كلما التقى الناظران ، وتخاطبت العينان . ولقد اهتم « ممنون » بحديثها كل اهتمام ، وبدأ يشعر بأنه اكثر ميلاً الى الاخذ بيد هذه المخلوقة التي جمعت بين الغفة والبؤس ، كلما مرّ الوقت على مجلسه واياها ، كان دقائق الزمن تدور في قلبه ، لا مع الأجرام

من ذا الذي يمكن ان يدخل الى الحجرة التي جلسا فيها يتباثّان : هي بالشكوى وهو بالنصيحة ؟ من تخيل ان يقتحم باب ذلك المنسك المقدس ؟ من تتصوّر سوى الهمّ الذي كانت مثارُ الشكوى . الهمّ الذي هو سبب البلوى وأصل المصيبة . وكان مدججاً بالسلاح من فوق رأسه الى اخمص قدميه ، وقال اول ما قال انّ من حقه الآن ان يُضحي بكليهما ، بالفيلسوف ممنون ، وبابنة اخيه . اما هي ففرت هاربة ، ملقية في روع الفيلسوف ان عمّها من شأنه الغو ، ومن خلائقه الغدران ، تلقاء بدرة من المال يسربها جيبه . فاضطر « ممنون » ان يشتري نفسهُ بكل ما كان بين يديه . وكان من حسنات تلك الأيام ان الناس كان في مقدورهم ، بمثل هذه الوسائل ان ينجوا بأنفسهم من المخاطب . ولم تكن اميركا في زمن هذا الفيلسوف قد اكتشفت بعد ، ولم يكن النساء المعطوبات ببلايا الزمن قد أصبحن مبعث خطر على الرجال كما هنّ الآن

وعاد « ممنون » إلى منزله خجلاً ، مكسور الجناح ، منكس الرأس . وهنالك وَجَدَ دَعْوَةً يدعوه بها عزيزها إلى مأدبة تضم بعض اصدقائه

قال : « اما اذا ظللت في البيت منفرداً بنفسي ، فسوف تساورني ذكريات هذا الحادث المشين ، فلا استطيع أن آكل كسرة ، وما يدريني ، فلعلي أمرض ، فمن حسن

التبصرة أن امضي الى اصدقائي الاعزاء ، وملّي أقضي في صحبتهم بعضاً من وقت الفراغ . سوف أنسى في عشرتهم الجليلة البريئة ، تلك الغواية التي وقعت فيها صبيحة اليوم »

وعلى هذه الفكرة ذهب لبحضر الوليمة . وسرعان ما بان لاصدقائه انهُ مهموم ، يريد ان يستقوي بالشرب على طرد هموم تساوره ، وذكريات لا تذهب الا لتعاوده

« ان قليلاً من الخمر يُحتَسَى بهوادة وتؤدة ، لَكفيلٌ بأن يذهب الهم من قلوب الآلهة ومن قلوب البشر » — ذلك ما قام في نفس ممنون الفيلسوف . واحتسى الخمر ، وامعن في احتسائها ، حتى سكر وغلا في السكر . وبعد ذلك جاء دور اللعب

— « ان قليلاً من اللعب مع اصدقاء اوفياء مخلصين ، لمن اجل الطيبات وقت الفراغ » — ولعب فخسر ، وخسر كل ما كان في كيسه ، وخسر اربعة اضعاف ما كان معهُ ، مقسماً بشرفه أغلظ الايمان انهُ سيدفع ما يخسر . وهنالك يقوم جدل على خطأ لا تجيزه شريعة القمار ، ويحمى وطيس الجدل ، وتقوم قيامة الكلام والاخذ والرد والجذب والدفع ، فيرميه احد اصدقائه الاوفياء المخلصين بعلبة من علب النرد فتصيب رأسه ، وتفقأ إحدى عينيه . ويحمل « ممنون الفيلسوف » الى بيته سكران معدماً ، لا عقل في رأسه ، ولا درهم في جيبه ، وبعين واحدة

حتى اذا قضى وقت مختار نائماً بنط غطيط البكر شد خناقه ، وبدأت سورة الخمر تتبخر من رأسه الحكيمة وذكر ما كان منه ، اسرع بخادمه فارسل به الى رئيس الخزينة في مدينة « بنوى » ليسلفهُ بعض المال ، عساه يقضي دينه ، دين الشرف ، الى اصدقائه الاوفياء المخلصين . فاذا عاد الخادم اخبره ان رئيس الخزينة قد اعلن إفلاسه صبيحة ذلك اليوم وانه وضع لاهل الحكم أنه محتلس محتال ، وانه بذلك اصبحت مائة اسرة في أشد حالات الفقر والعوز . فما وسع « ممنون » الفيلسوف الا ان يحجب عينه المفقوءة بلفافة ، ويأخذ في جيبه عريضة دعوى ليتقدم بها الى الملك ، طالباً منه ان يقيم العدل بينه وبين المختلس المحتال . وما ان يدلف الى دار العدل في البلاط الملكي حتى يلفي عدداً من السيدات ، وقد ملكهن هزة الفرح والسرور ، فرحن يدرن ممسكات بعضهن بأيدي بعض في حلقة ، وبأسرع ما يتصور العقل قفزاً ووثباً . وهنالك تتقدم اليه احداهن وكان له بها علاقة وتصبح في وجهه — « ما أبشع هذا المسخ المخيف » ! ثم تلوها اخرى وكانت به أكثر

سرعة من صاحبتها الاولى فتقول له — « بالله — أيها الفيلسوف ممنون ! ارجو ان تكون بخير . وأسفاه ! كيف فقدت عينك يا ممنون » — ثم تلتفت برشاقة وتوليه ظهرها ، وتبتعد عنه في غير اكتراث

هنالك لم يسع ممنون الا ان ينتبذ بنفسه ركناً من الاركان ، بعيداً عن ان تأخذه فيه الاعين ، ويظل منتظراً ، حتى تتاح له فرصة يتراءى فيها على قدمي الملك ولقد أزف الوقت وأتيحت الفرصة : فقبل الارض ثلاث مرات ، وتقدم بكتابه في يده ، فتقبله الملك بقبول حسن ، وأمر أحد رجال حاشيته ان يتسلم منه الكتاب ، فاكان من ذلك الرجل الا ان انحنى بممنون ناحية وقال له بخشونة وبذاءة :

« اسمع يا هذا ! أنت يا اعور ! يا من لا يملك الا عيناً واحدة ! لاشك في أنك كلب نبّاح مُزر . ذلك بأنك تتقدم الى الملك بكتابك ، في حين كان الواجب ان تتقدم به الي . أضف الى ذلك انك تطلب القصاص من مفلس امين شريف ، أحوطه بعنايتي وأظلله بحمايتي ، وهو فوق ذلك من اقرباء الوصيفة التي تقوم بخدمة حظيتي . عليك ان لا تتقدم خطوة اخرى في هذا الامر ، ايها الصديق الطيب ، هذا اذا اردت ان تفوز بالعين الاخرى التي بقيت في وجهك »

هذا ممنون الفيلسوف . ممنون الذي تخيل بين جدران حجرته الاربعة ان في مستطاعه ان يهجر النساء ، وان يقلع عن المائدة الخضراء وعن الشرب وعن الجدل والشجار ، واقسم فوق كل هذا ان لا يطرق للحاكم باباً . ممنون هذا وفي رأسه كل هذه الاخيلة ، وفي فترة وجيزة ، لا تعدو اربع وعشرين ساعة استمالته امرأة ، ثم سرقته ، ومن بعد ذلك سكر ولعب القمار وتشاجر ، وفقئت عينه ودخل المحكمة ، حيث أمتهن ، واهينت كرامته

ولقد اخذ ممنون العجب ، وملأ قلبه الهم والحزن ، فقفل الى بيته خضبان اسفاً . وما ان تأهب لدخول البيت ، حتى دوهم بعدد من رجال الشرطة شرعوا يفتشون اثاث بيته لياع وفاء لمطلوبات دائنيه . وتأخذ بتلابيبه الهموم ، فيسقط إعياء تحت شجرة على رصيف الشارع ، وهنالك يقع بصره على تلك المرأة التي لقيها في صبيحة الامس ، تمشي الهوينا مع عمها العزيز . وما ان رآه حتى اغرق في الضحك ، واصبع الم مشيرة الى الضمادة التي تحجب عينه المفقوءة

واقبل الليل بويلاته ، فهيأ ممنون لنفسه فراشاً من القش والبوص بجوار جدار من جدار بيته ، ونوّم رأسه الناس ، فأخذ ينط غطيطاً . وبينما هو في غفوته ، اذ تجلى لهُ ملكٌ من ملائكة السماء ، تجلل بالضياء محفوف بالبهاء ، مهيباً بأحنحة ستة ، ولكنهُ بلا رجلين وبلا رأس ، وما يشبهُ من شيء . — « من أنت » ؟

فاجابه الملك — « انا شيطانك الطيب »

— « اذن فردّ اليّ عيني وصحتي ومالي وعقلي »

ثم قصّ عليهِ ممنون كيف انهُ فقد كل هذه الاشياء بين صبيحة يوم ومسائه . ! فاجابهُ الملك : « هذه احداث لن يقع مثلها في عالمنا الذي نعيش فيهِ »

— « واي العوالم تسكن » ؟

— « ان مأهلي يبعد عن الشمس خمسمائة مليون ميل ، في نجم صغير الى جانب الشعرى ، على انهُ يمكنك ان تراه من مكانك الذي انت فيهِ »

قال ممنون — « انهُ لموطن جميل الماخاذ ! فقل . ومما لاشك فيهِ انكم لا تعرفون فاتنات يأسرنَ المفتونين امثالي ، ولا اصدقاء اوفياء يسلبون ما في جيبهِ من المال ، ويخطفون احدى عينيهِ ، ولا نفسين محتالين ، ولا رجال حاشية يهزؤون بهِ عندما يتقدم اليهم طالباً العدل والانصاف »

فاجابهُ ساكن النجم — « كلاّ . لا تألف شيئاً من ذلك فاننا لن نفتن بالنساء ، لانهنّ لا يوجدن حيث نسكن . ولن نتشاجر على الموائد الخضراء ، لاننا لا نأكل ولا نشرب ، وليس عندنا مغلبون محتالون ، اذ ليس عندنا ذهب او فضة . وأصيقنا لن تفقأ ، ذلك بان اجسامنا ليست كاجسامكم ورجال الحاشية لن يستطيعوا ان يسومونا خسفاً . ذلك بأننا جميعاً متساوون في طلعتنا البهية »

قال ممنون — « اتوسل اليك يا سيدي ان تخبرني : كيف تقطعون الوقت وتقتلون الزمن ، بغير نساء وبغير اكل او شرب » ؟

— « انما نقطع الوقت في مراقبة العوالم الاخرى التي يعهد الينا في تدبير امورها وما انبت الى عالمك هذا الا لاهديه من روحك واسليك عما انت فيهِ من الغم »

فتأوّه ممنون وقال — « واأسفاه ! ولمَ لم تأت يوم امس لتكفيني الوقوع في الكثير مما وقعت فيهِ من المخازي ، وتمنع عني ما تردّيت فيهِ من الاخطاء » ؟

فاجابهُ الكاتبُ السماوي — « كنت مع اخيك حسن ، فانهُ لأحقُّ بالشفقة منك . فان صاحب الجلالة ملك جزر الهند ، الذي كان لاخيك حظوة الخدمة في بلاطه ، قد امر بان تفقأ عيناه الاثنتان ، جزاء هفوة هينة . وهو الآن في اعماق السجن ، وقد اثقلت يديه ورجليه الاصفاد »

— « انهُ لمن الصدف الحسنة ان يكون في اسرة من الاسر شيطان طيب مثلك. فيكون من أثره فيها ان يصبح احد الاخوين اعور ، والآخر اعمى . احدهما يتمطى على فراش من البوص والقش بجوار جدار ، والآخر يتلظى في غيابات السجن ! »

فاجابه الملك — « ان حظك سوف يتغير سريعاً . من الحق انك سوف لا تحظى بعينك مرة اخرى ، ولكنك سوف تكون سيداً محظوظاً ، اذا لم يدر في رأسك مرة اخرى انهُ من الممكن ان تكون فيلسوفاً تام الفلسفة » . — « استحيل ذلك إذن » ؟

— « نعم مستحيل . كما يستحيل عليك ان تكون تام العقل . تام القوة . تام القدرة . تام السعادة . اننا نحن بأنفسنا بعيدين عن ان نفكر في ان نكون كما اردت أنت ان تكون . ولكن هنالك عالم يمكن ان تتحقق فيه كل هذه الاشياء . ففي تلك العوالم العديدة التي يبلغ عددها مائة الف مليون عالم تخضع كل الاشياء لسنة التدرج. ففي العالم الثاني تجد ان الفلسفة والنعمة سمة ، اقل منهما في العالم الذي يسبقه في ترتيب التدرج . وهي اقل في الثالث منها في الثاني ، وهكذا ، حتى اذا بلغت العالم الاخير ، وجدت ان اهله حيياً حتى اغبياء »

قال ممنون — « اخشى ان تكون ارضنا هذه المكونة من طين وماء ، هي بذاتها مباءة المائة الف مليون من العوالم التي تشرفني فجأتك بالكلام عنها »

— « ليس الامر كما تقول تماماً ، وانما قولك قريب من الحق . ان كل شيء يجب ان يوضع حيث يجب ان يكون »

— « ولكني أسألك أتخطئون اولئك الشعراء والفلاسفة الذين يلقون في روعنا دائماً ان كل شيء حسن ، وعلى انهم ما يكون في النظام » ؟

قال الملك « — لا . ليسوا على حق تماماً ، وانما يكونون على حق اذا ما نظروا في الاشياء من ناحية صلتها بنظام التدرج الذي يشمل قانون الكون كلهُ »

قال ممنون — « كلا . لن أؤمن لك ، حتى استرد عيني المفقوءة »